



أيار ١٩٣٠

## تقوذا السيد المسيح في حياتنا الدينية\*

بقلم الاب مرجي الدومينيكي

من اساتذة المعهد الكتابي والاثري الفرنسي في القدس الشريف

صحة الانسان بالله صفة ضرورية ؛ وضرورة هذا الاتصال  
ناشئة عن كون هذا ابن آدم خليفة اي صيغة ، وغير خاف ان  
كل مصنوع منوطاً حتماً بصانعه . ولما كانت كل خليفة  
تميش وتأتي اعمالها ، آية كانت ، حسب طبيعتها ، طبقاً للبدأ الفلسفي القائل :  
تجري الصنائع مجرى الطابع ، اراد الله سبحانه ان يقوم تعلقنا به بموجب طبيعتنا .  
واذ كان الانسان مركباً من نفس وجسد ؛ وكانت نفسه متصفة بقوى اهمها  
العقل والارادة ، رتب ، جل جلاله ، ان يتوقف الدين ، اي اتصالنا به ،

\* تقدم لنا في «مشرق» السنة الماضية مقالان في تقوذا السيد المسيح : الاول في حياتنا  
الادبية (ص ٤٨١) والثاني في حياتنا الاجتماعية (ص ٨٠١)

بنوع خاص ، على فطين وهما معرفته تعالى ، وهذا مما يرجع الى العقل ، ومحبته عز وجل ، وهو مما ينوط بالارادة ، ومن ثم بالقلب . واذ كان الله الحق الاسمى ، والحير الاعظم ، وجب على الانسان ان يعرفه بعقله ، أعني بقوته المدّة لادراك الحق ؛ وان يميل او يتجه اليه بارادته ، اي بقوته التواقفة الى الحير . وهذه المعرفة ، وهذه المحبة ، المتكونة منهما حياة الدين الفطري ، قد رفعها الله الى درجة لم يكن للانسان مندوحة للوصول اليها بما فطر عليه من القدرة الطبيعية ، وهي درجة معرفته ومحبته بنوع فائق الطبيعة . ومن ذلك نشأ الدين العاوي المرحى به ، اي الذي اتزله الله تدريجاً اولاً في بدء الخليقة ؛ ثم على يد موسى كلييه ومن تبعه من الانبياء الصادقين ، على تماقب الدهور ؛ الى ان اكمله على يد ابنه الوحيد ، حياً جاء به يولس الرسول في رسالته الى البرانيين بقوله : ان الله كلم آباءنا قديماً بالانبياء . كلاماً متفرق الاجزاء ، مختلف الانواع . وكلمنا اخيراً في هذه الأيام بابنه الوحيد الذي جملة وارثاً لكل الاشياء ، وبه انشأ الدهور .

فالدين ، طبيعياً كان ام متزلاً ، قائم اذن في معرفة الله وما يتعلق به ، وقائم ايضاً في الميل الى الله ومحبته ، في الاول بنوع طبيعي ، وفي الثاني بنوع فائق الطبيعة . وهذه هي حياتنا الدينية . فاذا تقرّر هذا ، لنبحث عن كيفية نفوذ السيد المسيح فيها ، اي في معرفتنا الله ، ثم في محبتنا له ، تقدّست اسماؤه .

بعلنا ايماننا ان الله موجود ، وانه خالق الكائنات عموماً ، وخالقنا خصوصاً . فن ثم كان من اللائق ، بل من المحتم ، ان يحصل لنا معرفة بالله وما يورد اليه ، اي بالعالم ، وبنفسنا . وهذه المعرفة المثلثة الموضوع قد زاد تعالى على درجتها الطبيعية درجة سامية ، فائقة الطبيعة . فبسر الثالث الاقدس ، قد عرفنا حقيقة طبيعته سبحانه ، وهو امر كان ادراكنا عاجزاً غاية العجز عن تصوّر وجوده ؛ وبسر الخلق ، علمنا حقيقة العالم ؛ وبسر سقوط الانسان ، قد اطلعنا على حقيقة طبعنا . وهذا كله قد كل بالوحي الذي اتنا مع الانجيل . الا ان هناك سرّاً حوى مفعول هذه الاسرار كلها ، ولخص

لنا المعارف المنطوقة عليها ، وهو سرّ التجسد الالهي ، الذي بواسطته خاصة كان للسيد المسيح الاثر البالغ في معرفتنا الدينية .

فيسرّ التجسد ، او سرّ الكلمة المتأنس ، قد علمنا علماً فائق الطبيعة بطبيعة الله وحياته في ذاته . لان هذا السرّ يظهر لنا ان الكلمة الازلي هو شاع جوهر الآب ، وضياء مجده ، الذي نزل من السماء الى الارض لكي يلتقنا معرفة الله التي بها تقدر ان تحصل على الحياة ، كما قال ، لاسمه السجود موجهاً الكلام الى ابيه : « قد جنتُ يا ابناه لتكون لهم الحياة الابدية ؛ وهذه الحياة الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ، والذي ارسلته يسوع المسيح . » فاحدى غايات التجسد كانت ان يعرفنا الله ويبين لنا سرّ حياته الداخلية ، اي مثلنا هو بذاته . وهو امر كان ، قبل ان يعلنه المسيح ، سرّاً غامضاً حتى على حكما هذا الدهر . نعم ، كان للثالوث الاقدس بهض الاثر في تقايد الاسم ، وفي العهد القديم ؛ وكان له في الطبيعة عينها بعض الرموز : نعم من شأن الفلسفة والعلم اثبات وجود الله واعماله في الخارج . اما حياته الداخلية فلم يكن في امكان انسان ، وان كان آية في البقيرة ، ان يطلعنا عليها . فالمسيح وحده اوحى بها الينا في انجيله . ودونك ، في ذا الشأن ، بعضاً من اقواله : « الا تؤمن ، يا فيلبس ، اني في الآب ، والآب فيّ ؟ آمنوا اني في الآب وان الآب فيّ . وانا اسأل الآب فيعطيك مغزياً آخر يقيم معكم الى الابد ، الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي . فهو يعلمكم كل شيء . » وقبل صعوده ، قال لرسله ذاكراً اقانيم الثالوث : « اذهبوا الى العالم كله ، وعتدوا الاسم باسم الآب والابن والروح القدس . » هذه هي شهادة الابن عن الثالوث ، اي عن نفسه وعن ابيه وعن روحه القدوس . وبعد ان اوحى المسيح بسرّ الثالوث ، بشر الرسل باسم الثالوث ؛ وباسم الثالوث علموا البشر ؛ وباسم الثالوث عتدوا الاسم ؛ وباسم الثالوث كان الشهداء يوسون علامة الثالوث على جباههم ، قبل تولدهم مضار الاستشهاد . فانت ترى ان سرّ الثالوث هو أساس الدين المسيحي ، وان ملخصه هو في سرّ التجسد ، اي في المسيح الاله المتأنس .

فضلاً عن اسرار الله ، قد كشف لنا المسيح حقائق الكون ، لانه نور ساطع على المبروات جما . كما قال مر عينه : « انا نور العالم » . وبالحق انه نور العالم ، ليس في دائرة العقليات والادبيات وحدها ، بل هو نور العالم حتى في مادياته . اذ ان يقينا بالله يعرفنا باصل العالم وخالفه . وبما ان المسيح هو كلمة الله ، فقد حوى في ذاته مثال المخلوقات باسرها ؛ وكما ان كل شيء فطر على صورته ، فقد كَوْن ايضاً بفاعلية قدرته ، كما جاء في انجيل يوحنا : « كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء . ثم كان . » فن الجهة الواحدة زاه صادراً من الآب صدوراً ازلياً . ومن الجهة الثانية تجده خالقاً للعالم في الزمان . فالكلمة ضياء الآب ومجده وصورة جوهه . والكلمة مثال الخلائق وباريها . وهذا هو السر الذي التقى على العالم نوراً لامعاً ، لانه نور العالم . فالايان بالوهية المسيح يحل عقدة اصل العالم وخلقه وتكوّنه ، ويبيّن لنا ان بين الله وبين خلّاقه يوناً شاسعاً ، وان الكلمة المتجدد قطع هذا الشوط القسني ، فاضحى الصلة بين الله ومبرواته ؛ وباتحاده في شخصه الالهي الطبيعيين الالهية والانسانية ، اثبت تميّزها الواحدة عن الاخرى .

ثم ان سرّ التجسد يظهر لنا ، بعد اصل العالم ، نظام الكائنات وتناقلها . لاننا نعلم ان هناك رجالاً نوابغ ، وفلاسفة جياذدة قد درسوا طبائع الكون وعتقوا في احواله ؟ فوجدوا في كل مكان ان الخلائق العليا ، اذا اتصلت بالسفلى ، رفعت الى طبيعتها ، وجعلتها في مقامها . من ذلك النبات يجذب اليه المعادن فيضها ، لا بل يمزجها بحياته النباتية . والحيوان يستميل اليه النبات فيتمثله ، ويدخله في حياته الحيوانية . والانسان المرتفع على كل ما تقدم من المخلوقات يجذب اليه هذه الكائنات المدنية والنباتية والحيوانية فيستغرقها كلها في طبيعته البشرية ، ويرقي بها الى مقامه الروحي الذي يتصل به هو عينه بالطبقات العقلية الرفيعة . فاذا كان هذا نظام الطبيعة ، اي نظام اجتذاب الخلائق العليا للخلائق السفلى ، واستيعاب طبيعتها ، افلا يمكن ان نتصور اوتقاعاً واتحاداً آخر ؟ اجل ان هذه الاتصالات قد جعلت الانسان كالمصلة بين الخلائق الجسمانية التي هي ادنى منه ، وبين الخلائق الروحية التي هي اعلى منه .

لكن هناك اتحاداً لم يشاهد قط مثله في العالم ، وهو الاتحاد الذي اجراه الله بمجيبته ، اي اتحاد الانسان به تعالى ، وذلك في شخص المسيح الاله الحق ، والانسان الحق ، وهذا الذي كلل ذلك التناسق العجيب .

على ان المسيح الكلمة المتجسد يعلنا ، فضلاً عن هذا ، علم الانسان ؛ اي انه يعرفنا بوحدة اصلنا وبطبيعتنا . لان من معتقدات الدين المسيحي ان البشرية قد سقطت ؛ وان متقدما هو المسيح ابن الله . مما نتج عنه ان كل البشر الذين خلصوا بيسوع المسيح هم الذين هلكوا جيمهم بآدم . فالقنوط جرى بآدم الاول ، والقيام بآدم الثاني . وهاتان هما العقيدتان المتجاذبتان والمتحدتان ؛ وكلاهما تثبت وحدة الجنس البشري ، اي ان جميع هؤلاء الانام قد نزلوا من صلب ابيهم الوحيد ؛ مما جعلهم باسرام اخوة بالطبيعة ، كما هم اخوة بنعمة المسيح . وبعد وحدة الاصل ، يلقننا سر التجسد معرفة الطبيعة البشرية . لان عقيدة اتحاد لاهوت ابن الله بناسرتنا اتحاداً اقنومياً يوحي لنا ان لنا ، فضلاً عن الجسد المادي ، نفساً روحانية ، حرة ، خالدة ، لا هو معلوم من اصول ايماننا ان التجسد لم يتوقف على اتخاذ الكلمة من طبيعتنا الجسد وحده ، بل انه قد اضحى انساناً كاملاً اي ذا جسد ونفس اتحدت بلاهوته . مما يثبت معه ان في الانسان نفساً حية روحانية ، لظهور النفس متغيرة في المسيح عن جسده وقائمة بذاتها ؛ ونفساً حرة ، لانه قبل باختياره المطلق الآلام والموت ؛ ونفساً خالدة ، لان نفسه باقية في المجد معه .

وبما يفيد به سر التجسد هو انه يوضح لنا تاريخ البشرية . اذ بدون المسيح كل التاريخ ، سابقه ، ومحاصره ، وتابعه ، لا معنى له . فبدونه لا يرى في الشعوب المتقدمة ميمنه سوى الاضطراب والتنازع والتطاحن والتفاني . ولاسيا في الشعب الاسرائيلي ؛ فانه ان لم يُعتبر بآبائه ، وانبيائه ، وشراسته ، كشميد لمجبي المسيح ، فلا يكون وجوده وتاريخه الأ زعيرة وشموذة . وكذا القول في تاريخ تأسيس الدين المسيحي ونشأته . فغير عقيدة التجسد ، اي بدون الايمان بالمسيح ابن الله ، لا يمكن شرحه . اذ لا يمكن تليل الانقلاب الذي احده . لان اتخذال العالم الوثني ، وانتصار المسيحية اما هو

حدث الهي اي من تأثير المسيح الاله ، وألا فهو حادث. مستحيل الوجود. وهذا ايضا شأن التأريخ الذي عقبه الى يومنا هذا ؟ فان ثبات التصراية ، على الرغم من الاضطهادات ، والتقلبات ، والمهطقات ، ليس ألا من مفاعيل الوهية المسيح وقرته الفائقة الطبيعة المستمرة في الكنيسة حتى منتهى الدهور .

صفوة القول ، ان المسيح الاله هو كالفنار المنتصب على ساحل بحر هذا العالم متلائماً ، ساطعاً بنوره على سبيل الحقائق الضرورية لنا معرفتها في ما يعود الى الله والعالم وطبيعتنا . فان كل شي . به ، ومعه ، وفيه . هذا نفوذه الاول .

...

على ان نفوذه الثاني ، اي تأثيره في الارادة التي بها نعمل الى الله ونحبه ، ليس باقل فعلاً من تأثيره في عقلنا . لاننا اذا اتعنا النظر في حقائق ديننا القويم ، نرى فيه عجائب مذهلة ، نسبة الى الاعمال التي اجراها الله لحير الانسان . لكننا نشاهد ، فوق كل تلك المدهشات ، عجيبة من اغرب العجائب تلمع بينها كالشمس النيرة ، الا وهي عجيبة المحبة . اننا اذا عمقنا في التأمل ، نجد المأ واجب الوجود ، كائنات بذاته ، تقديرأ ، غنياً ، حكياً ، لا بداية له ولا نهاية ؛ حياته وغايتها ، سعادته وكالمها ، في نفسه . ألا ان هذا الاله فيه خاصية جوهرية هي خيريته او جودته النياضة التي دفعت حكته وقدرته الى العمل . فمن فيض هذه الجودة الالهية . قد برزت قدرته الى الخارج ، فابدعت العالم بما فيه من كائنات ساهرة راضية . وفي جملة هذه المبروات صنع الله الانسان ، ميمراً آياه عن بقية الخلائق . وكان ذلك عجيبة من عجائب المحبة الالهية . خلقه من مادة جامدة نفخ فيها روح الحياة ، الروح العاقلة ، المريدة ، الحرة ؛ فجاء بذلك على صورة باربه ومثاله . فوضعه الله في جنة عدن ، وافاض عليه بركاته وآلائه ، واقامه ملكاً مطلقاً على الطبيعة . وما سبب ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . سقط الانسان في الخطيئة ، رغماً مما زينه به من الكمالات ، وانعم عليه من الخيرات ؛ لكن الله ، عوضاً عن ان يهمله ، قصد ان ينشله من وهدة الهلاك . وما داعي ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . الملائكة اشرف من الانسان واسمى ، وكانوا قد سقطوا قبله ،

فهلكوا هلاكاً ابدياً . اما الانسان ، فقتله الله على الملائكة ، واختصه بمنايته ؟ فما علة ذلك ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . هذه الارواح الساهرة لم تحطى الا خطيئة واحدة في ظرف من الظروف شت على طبيعتها غاية الشق ، فجمعت على التمس الدائم ؛ وابناء البشر يأمرون ولا يزالون مكترنين الاثم ، رافضين نعم الله ، محترقون وصاياه ؛ ومع ذلك يحتم الباري ان يتقدم ، ولماذا ؟ عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان في امكان الله ، وقد حتم بان يقفر للانسان بجرمه ، ان يفعل ذلك بكلمة واحدة تصد من فم القديس ؛ لكنه قصد ان يخضع بتجسد كلمته الازلي لان التجسد اسماى درجة لاتحاد خليقته به ، واولى وسيلة لارضاء عدله ورحمته مآ . وهذا ايضا عجيبة من عجائب المحبة الالهية . صار الكلمة جسداً وحلّ فينا ، اي انه ضم طبيعتنا الواهية الى طبيعته الالهية باقنومه السامي ؛ فاصبح الاله انساناً ، والانسان الها ؛ وبذلك ارتفعت الافعال البشرية الى مقام الافعال الالهية ؛ بما قدر الانسان معه ان يكفر ، في شخص المسيح ، عن خطيئته . اجل ان هناك لراً عميقاً ؛ لكنه عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان يوسع المسيح ان يكتبي بهذا العمل العظيم الذي لم يُر له مثيل ؛ لكنه لم يرض بان تواضع هذا التواضع ؛ بنزوله من علو بهائه ، حيث يحف به الملائكة ركناً سجداً ، متبحين ، لانه رأى في قلب الانسان ميلاً شديداً الى الكبرياء ؛ فعزم على ابرائه منها . ولذا ، فهو الذي لم يجب خلة ان يكون مساوياً للآب ، قد اخلى نفسه وتواضع وصار في اشبه مثل الابنان ؛ فولد في سفارة حقيرة ، من أم فقيرة ؛ وعاش حياة المسكنة ، وقضى ايامه الرسولية بالتب والثناء ، مرضاً ذاته للمذلة والهوان ؛ وهذا كله عجيبة من عجائب المحبة الالهية . ولم تكن المحبة لتقف عند هذا الحد ، لانه هكذا احب الله العالم حتى انه سلم ابنه الوحيد ؛ والى اي شي سلمه ؟ سلمه ليس الى الشغل والتب ، او النذل والمار فقط ، بل اذ كانت الخطيئة تدفع الانسان الى طلب الراحة والرفاهية والتشم والم لذات ، قد قرر الآب الازلي ان يدفع ابنه الى العذاب والآلام القادحة ، لكي يفهم البشر ان لا كفارة عن الخطيئة الا بتجرع غصص الألم

وان طريق الصليب هو طريق الساء . وهذه عجيبة من عجائب المحبة الالهية . كان كافياً للمسيح الاله ان يأتي فملاً واحداً ، كذئف دمة ، او سكب نقطة دم او ما اشبه ، للتكفير عن المآثم البشرية ، ولفداء عوالم جنة ؛ لكنه ، فضلاً عن الاتعاب ، فضلاً عن الاحزان والكروب ، فضلاً عن الاوجاع والآلام ، اراد ان يموت الميتة الشئمة المريمة ، ميتة الصليب ؛ لكي يثبت لنا انه كما ان لكل شي . حداً اقصى ، اقتضى ان تبلغ محبته للبشر اقصاهما ؛ هو الذي اذ كان قد احب خاصته احبهم الى الاية ؛ وهو القائل : « ما من حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن اجائه ا » . وهذا اعجب عجائب المحبة الالهية . على ان المسيح المكرم بحب البشر لم يشأ ان يضحي مرة واحدة على الصليب كفارة عن مآثنا ، بل اته ، ارواءً لتليل جبهه لنا ، قد رسم سر المحبة الذي امكنه به ان يكون ذبيحة متواصلة على المذابيح ، تصد عن الخطاة سيف غضب الله الساخط عليهم ، لتفانم شرورهم ؛ وفيه ايضاً صار طعاماً وشراباً لتقوية نفوسنا ؛ وزوادة لنا في سفرنا الى الابدية ؛ فضلاً عن انه رضي ان يبقى سجيناً في كنانتنا ، ليقوم لدينا مقام الرفيق والحليل والمغزي والمشجع لنا في ضيقاتنا وتجاربنا واحزاننا . وهذا ليس عجيبة من عجائب المحبة فقط ، بل هو عجيبة الدجائب ، واقصى حدما ، واوج كمالها ، في سبيل المحبة ، من قبله تعالى فحونا نحن البشر .

هذا ومعلوم ان المحبة تدعو المحبة . فاذا كان للسيد المسيح النفوذ البالغ في انشاء المحبة الالهية في الحياة الدينية ، فلم يكن الا لينثى في قلوب البشر محبة تقابل هذه المحبة الربانية . وبالحق ان المسيح القائل : « جنت لاتي تاراً على الارض ، وما اريد الا اضطرابها » ، قد اضرم حريقاً في العالم ، هو حريق المحبة المتأجج في النفوس ، منذ تجسده وحياته الارضية ، وعلى مدى الدهور . فنجم عن ذلك تجاه عجائب المحبة الالهية ، عجائب المحبة الانسانية . اذ مقابل محبة المسيح ، وبنفوذ نعمته ، ترى عجائب المحبة في امه القدوسة ، التي عاشت على الارض متحدة القلب بابنها الالهي ؛ فكانت كشملة ملتبة بنار المحبة ، وشاركته في اتعابه وآلامه ؛ ولم تفارق هذا العالم الا لشدة حبا

لحاشية فزادها وقلدة كبدها . وكذا القول عن القديس يوسف ، صرّي المسيح؛ فانه يعيشه قرب اتون المحبة قد التهب هو ايضاً بنيرانها الالهية . وبنفوذ نعمة المسيح الفعالة ، قد تأثر رسله الاطهار الذين تركوا كل شي . وتبعوه . ولاسيما زعيمهم بطرس الذي اجبر بحبه للمسيح في فرص كثيرة ؛ ويوحنا الذي دعاه الانجيل : «التلميذ الحبيب» ، وقد اضحى رسول المحبة . وماذا تقول عن بولس الرسول الذي التهب بحبة مملته ، فكان يصرخ قائلاً : «من يفصلنا عن محبة المسيح ، اشدّة ام ضيق ، ام جوع ، ام عري ، ام خطر ، ام اضطهاد ، ام سيف ؟ اني واثق بانه لا موت ولا حياة ولا علو ولا عمق ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربنا .» وقد ختم جميع الرسل ايمانهم ومحبتهم باقتدائهم بحبة معلمهم العظيمة ، اي انهم سفكوا دماءهم في سبيل دين يسوع الذي بسروراه . وعلى مثال الرسل قد سار الوف فالوف من المسيحيين ، رجالاً ونساء ، شيوخاً وعجائز ، شباناً وشابات ، صبياناً . وصبيات ، فاغرموا بحب المسيح هذا الترام البالغ بهم اقصى الحد ، اي انهم تكبدوا المار والهوان ، والتعب والمشقات ، والمذاب والآلام القاسية ، شهادةً للدين المسيحي ، فنالوا اكليل الظفر والسعادة الخالدة . وبمزل عن هؤلاء ، هناك الوف وريوات من الابرار ، من مصاف النساك والمتوحدين ، والرهبان والراهبات ، والكهنة والاساقفة والاجبار للمعظم ، الذين احبوا المسيح حباً جماً ، وحققوا في نفوسهم فضائله السامية ، محاربين امياهم المعوجة ، سائرين في طريق الكمال ، فاحصوا بين القديسين .

الخلاصة ، ان للمسيح الاثر البالغ ، والنفوذ التام في حياتنا الدينية . لانه عرفنا الله معرفة كاملة بطريقة فائقة الطبيعة ، واطلنا على حقيقة العالم ، وماهية طبيعتنا وحياتنا . وكان الوسيط بين الله ابيه وبيننا . وقد جاء فاقى في العالم نار المحبة ، فاشتعلت بها النفوس ، وتأججت لهباتها في القلوب ؛ فدفت تلاميذه الى اقيان الاعمال العظيمة ، والمشاريع الباهرة ؛ بما حيد الوردى في كل حجر وجبل . فيضانه هو القادر على كل شي . هو المنير العقول ؛ هو المضم القلوب ؛ وله المجد والتسبح والشكران في كل اوان .